The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 1, No. 2, November 2022
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

ظاهرة التكرار في القص القرآني وأثرها الدلالي، قصة آدم – عليه السلام – نموذجا

د. محمد راضي محمد الباز الشيخ
drrady2020@gmail.com
كلية اللغة العربية بجامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد فهذا بحث بعنوان "ظاهرة التكرار في القص القرآني وأثرها الدلالي. قصة آدم – عليه السلام – نموذجا" يهدف هذا البحث إلى بيان ظاهرة التكرار في القصة القرآنية وبيان أثرها الفني، وأن هذا التكرار يتطلبه المعنى المراد ويسهم إسهاما مباشرا في بلورة الدلالة القرآنية، وتكمن إشكالية البحث في إنكار بعض الجاحدين بيان القرآن وفصاحته، ويقولون إن به تكرارا لا معنى له وخاصة في أساليب القص القرآني، وتبرز أهمية البحث في أنه يوضح هذه الظاهرة توضيحا كبيرا بوصفها إحدى ظواهر اللغة العربية، وقاعدة من قواعدها الأصيلة، وبيان أثرها الفني وخاصة في القص القرآني، وكيف أنها ليست مقحمة على آيه وسوره، ولها علاقة مباشرة بالمعنى المراد، وتلتحم التحاما مباشرا بالسور القرآنية التي ورد فيها القص القرآني، وقد انتهجت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، وهو يُعنى بوصف الظاهرة وصفا دقيقا ثم تحليليها تحليلا فنيا، وبيان أثرها في إبراز المعنى وبلورته، ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث: أن هذه الظاهرة من ظواهر اللغة العربية الأصيلة، وشاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون القرآن عربيا، ففي القرآن ما في اللغة وعلى رأسها ظاهرة التكرار وأن التكرار في مشاهد القص القرآني كانت توجبه سياقات الآيات، واختلاف زاوية الرؤية، واختلاف المقصود من المشهد القصصي، بحيث يتكرر، وفي كل مرة يضيف معنى جديدا، تكرار القصة يثبت العقيدة في نفوس الأتباع، ويردع المجرمين، ويواسي المقهورين، ويعطي أملا للمخلصين، والإلحاح على أي أمر بالتكرار يرسخه في النفوس، وينبه عليه تنبيها شديدا. وقد أتى البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة، أما المقدمة فأبين فيها ماهية ظاهرة التكرار وأهميتها في القص القرآني، أما المبحث الأول فأتى بعنوان: التكرار في النص القرآني، وأما المبحث الثاني فأتى بعنوان: التكرار في القص القرآني وأثره الفني، والخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم أخيرا قائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: التكرار – القص القرآني – الأثر الفني – الدلالة.

المقدمة

إن تكرار مشاهد القص القرآني ولقطاته ظاهرة لافتة للنظر، فهي تتكرر في مواقف مختلفة وسور عديدة من سور القرآن الكريم، ومن ثم يتغير مدلولها والمغزى منها حسب السياقات المختلفة التي وردت فيها، وحسب اختلاف زاوية الرؤية، وهذه الظاهرة علامة فارقة شديدة الوضوح يتمايز بها القص القرآني عن غيره من القصص الفني البشري، وهذه صورة من صور الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فمشاهد القصة الواحدة تتكرر في سياقات مختلفة ولقطات متباينة من آي القرآن وسوره، وفي كل مرة تضفي معنى جديدا، أو يظفر متلقي النص القرآني بمعان متباينة أشد التباين يقف المتلقي أمام هذه المعاني مشدوها من فرط روعتها وجمالها الساحر من حيث إحكام النظم، وتماسك البنية السردية لمشاهد القص المكررة، وفي الوقت ذاته من أثره الدلالي الموحي بأشد ما يكون الإيحاء، فالتكرار في مشاهد القص القرآني ثرى مفعم بالدلالة والأثر الفني، فمتلقوا النص القرآني يختلفون في درجة استقبال الأثر الدلالي للنص القرآني، فمنهم من تكفيه الإشارة العابرة ومنهم من يحتاج إلى أدق التفاصيل ومنهم من يحتاج إلى موقف معين دون غيره من المواقف الأخرى حتى يستكنه المعنى المراد من القص القرآني، وهذه الظاهرة يجب أن يولها الباحثون عناية تتناسب وأهميتها في بيان إعجاز النص القرآني، ومن ثم الإفادة منها في وضع أطر حاكمة فنية وأسلوبية يمكن الإفادة منها في تطوير هذا الفن (فن القص العربي)، ولا سيما أنه أوروبي المولد والنشأة. في السطور التالية أحاول إلقاء الضوء على هذه الدراسة في القص القرآني، واتخذت مثالا لهذه الظاهرة قصة آدم عليه السلام نموذجا.

المبحث الأول: التكرار في اللغة والأدب

التكرار بوصفه ظاهرة واضحة من ظواهر اللغة العربية، وبنية أسلوبية من بنياتها المتعددة، عرفته اللغة العربية في أقدم نصوصها التي وصلت إلينا عبر أسلافنا من خلال الأدب الجاهلي شعره ونثره، ثم وظفها القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفي كل كلام العرب، وهي ظاهرة مشتركة بين علمي النحو والبلاغة، يتنازعها الطرفان كل حسب قواعده وأصوله ونظرته إلى ظواهر اللغة المختلفة.

فالتكرار لغة: هو مصدر الفعل كرر أو كرّ، والكر: مصدره كر عليه، يكرّ كرا، وتكرارا عطف، وكرّ عنه رجع، وكرّ على العدو يكرّ، ورجل كرار، ومكرّ، وكذلك الفرس، وكرر الشيء: أعاده مرة بعد أخرى، والكرة: المرة، والجمع الكرّات، والكر الرجوع على الشيء ومنه التكرار"[(1)]، وقد أورد " الزمخشري "لهذه الكلمة مجموعة من المعاني المرتبطة بها استقاها من كلام العرب، وهي تدور كلها حول معنى واحد عام مشترك، هو الإعادة والترديد من ذلك: "ناقة مكررة، وهي التي تحلب في اليوم مرتين... وهو صوت كالحشرجة "[(2)].

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ج5/ 390.

(2) الزمخشري: أساس البلاغة، ط1، 2003م، بيروت، لبنان، ص726.

التكرار اصطلاحا: "هو دلالة اللفظ على المعنى مرددا"[1]، وعرفه القاضي الجرجاني: "عبارة عن الإتيان بشيء مرة بعد أخرى"[2]، وقال عنه السيوطي: "هو أبلغ من التوكيد وهو من محاسن الفصاحة"[3]، "وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر"[4]، وقال الجاحظ " ليس التكرار عيّا، مادام لحكمة كتقرير المعنى، أو خطاب الغبي، أو الساهي، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعيّ ما لم يجاوز الحاجة إلى العبث"[5].

التكرار ظاهرة لغوية وإحدى التقنيات الفنية التي وظفها الأدب العربي شعره ونثره، لكن له ضوابط، فهو لا يستعمل إلا عند الحاجة وحسب ما يقتضيه المقام، فلا يقحم على التركيب اللغوي، ولكن لابد أن يستدعيه المقام وسياق الكلام، حتى يكون ذا أثر دلالي ينعكس على المعنى المراد، يثري البنية ويغني الدلالة، ومما يؤكد هذا الكلام ما أورده الجاحظ من قصة ابن السماك " الذى جعل يوما يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه، لولا أنك تكثر ترداده، قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد مله من فهمه"[6]، وعلى إثر هذا يتضح لنا أن التكرار بوصفه ظاهرة لغوية وأدبية كان له صدى في تراثنا البلاغي والنقدي، وكان تراثنا على وعى بضرورة استدعاء السياق له.

في النقد الحديث هو "إلحاح على جهة هامة في العبارة"[7] وكذا "يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه"[8]، وهذا يعني أن التكرار يبين لنا ذهنية الكاتب وما يجول بخاطره، لأن اللسان يظهر ما يخفيه الجنان، وأن ما يدور في الذهن يؤثر في الكلام المنطوق شاء المتكلم أم أبى، وهذا يعني أنه عندما "يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه، سواء أكان اللفظ متفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده، وهذا من شرط اتفاق المعنى الأول والثاني، فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس، وكذلك إذا كان المعنى متحدا وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفا، فالفائدة بالإتيان به للدلالة على المعنيين المختلفين"[9]، ومن ثم فإن للتكرار دلالات فنية ونفسية يدل على الاهتمام بموضوع ما يشغل البال سلبا كان أم إيجابا خيرا أو شرا،

(1) ابن الأثير: المثل السائر، تح محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، 1999م، بيروت، لبنان، ج2/ 146
(2) القاضي الجرجاني: التعريفات، تح نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصوير، القاهرة، ط1، 2007م، ص113
(3) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط 1988م، ج3/ 199
(4) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج3/ 9
(5) الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1/ 79.
(6) الجاحظ: البيان والتبيين، ج1/ ص89- 90
(7) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، مطبعة دار التضامن، ط1، 1965م، بغداد، ص242
(8) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، مطبعة دار التضامن، ط1، 1965م، بغداد، ص242
(9) محمد صابر عبيد: القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية، اتحاد الكتاب العرب، 2001م، دمشق، ص15

جميلا أو قبيحا، ويستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاته، والتكرار يصور مدى هيمنة المكرر وقيمته وقدرته[1]، فالتكرار يعد واحدا من الظواهر اللغوية التي نجدها في الألفاظ والتراكيب والمعاني وتحقيق البلاغة في التعبير، والتأكيد للكلام والجمال في الأداء اللغوي، والدلالة على العناية بالشيء الذي كرر فيه الكلام، ونجد التكرار في القرآن الكريم والحديث النبوي، وكذا الشعر والنثر[2].

في الدراسات النقدية الحديثة اهتم النقاد بزاوية الرؤية التي تكون خصوصية الصورة من طريق كثافة التركيز على عبارات معينة في الكلام تحمل مضمونات وإن شئت قلت رسائل مهمة يجب أن تصل للمتلقي، والكلام البشري (الموجه للبشر) يقتضي الترديد لأن المستمع غالبا ما يكون موزعا بين الاستماع إلى ما يوجه إليه من خطاب وبين مشاغله الداخلية، وهكذا فالتكرار له أهمية في عملية الاتصال، وهذا ما أكده التراث ففي قول الزمخشري عن "جدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد ما علق في نفس السامع ومكنته في قلبه وأمطت شبهة بما خالجته أو توهمت غفلة عما أنت بصدده فأزلته"[3]، وعلى إثر هذا فالتوكيد أداة من الأدوات المهمة في عملية الاتصال، فيساعد على "تمكين المعنى في نفس المخاطب وإزالة الغلط في التأويل"[4]، فالنص – أي نص – الغرض منه التواصل ما بين المبدع ومتلقي نصه الأدبي شعرا كان أو نثرا، فالتواصلية في النقد الحديث لها العديد من الوسائل والتقنيات الفنية التي تغص بها اللغة العربية ومن بينها التكرار.

والتكرار أسلوب شائع في الخطابات على تنوع مواضيعها واختلاف أجناسها، ولكنه لا يدرس ضمن الحجج والبراهين التي يقدمها المتكلم لفائدة أطروحة ما، حيث يوفر لها طائفة مضافة تحدث أثرا جليلا في المتلقي، وتساعد على نحو فعال في إقناعه، أو حمله على الإذعان، لأن التكرار يساعد على التبليغ والإفهام وترسيخ الرأي أو الفكرة في ذهن المتلقي[5]، وسواء تعلق الأمر بتكرار اللفظ أو تكرار المعنى، وذلك لأن من يريد التأثير في الآخر وإقناعه وحمله على الإذعان، لابد وأن يعيد الحديث عن الفكرة نفسها في أكثر من موضع من كلامه أو من نصه الأدبي.

هذا هو مفهوم التكرار في الدرس اللغوي، وأثره في الكلام وأسباب الإتيان به في الكلام.

المبحث الثاني: التكرار في القص القرآني

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ

(1) انظر عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ط1، 1980م، ص67

(2) محمود سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م، ج1/ 499

(3) الزمخشري: المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، ص 111- 112

(4) ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، ج2/ 39

(5) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم. بنيته وأساليبه حتى القرن الثاني الهجري، علم الكتاب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2008م، ص 168

عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 192 - 195]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: 103]، وقال تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: 28]، بلسان عربي مبين واضح فصيح حتى يفهمه العرب المنوط بهم حمل الرسالة وإيصالها إلى العالم أجمع، والخروج بها من ضيق الجزيرة العربية إلى رحابة العالم الواسع لتصل إلى كل نفس على وجه الأرض، من خلال الآيات القرآنية السابقة وغيرها يتضح لنا بجلاء أن في النص القرآني معلمان، المعلم الأول عربيته الواضحة، حتى يتقنوا ما فيه من أوامر ونواه، وما يشتمل عليه من أحكام وتشريعات تضبط إيقاع حياة المسلم، والمعلم الثاني فصاحته المعجزة حتى يتبين للعرب بما لا يدع مجالا للشك انتفاء بشريته وإثبات إلاهيته بمعنى أنه من عند الإله الخالق، ومن ثم نزل على سنن العربية أي قواعدها وأطرها الحاكمة، وطاقاتها الإيحائية التي تستمدها من تراكيبها ونظمها البديع الذي يعبر تعبيرا واضحا عن كل المعاني التي يمكن أن تجول بخاطر العربي، ففيه ما فيها، فكان قمة سامقة في الفصاحة لأناس ميراثهم الوحيد البيان، فقد سجدوا لبيانهم سجدة خاشعة لم يسجدوها لأصنامهم، وفور نزوله لفت أنظار العرب الجاهليين إلى فرط جماله وسحره، فكانت آية أو بضع آيات قلائل سببا لإيمان بعض العرب ليقينهم أن هذا ليس من كلام البشر، لحسهم المرهف وذائقتهم اللغوية والبيانية المتفردة، فالعرب قد وصلوا إلى قمة البيان العربي، بل أذهب إلى أبعد من ذلك –كما قال العلامة أبو فهر محمود محمد شاكر – وصلوا إلى قمة البيان الإنساني قاطبة[1].

فالتكرار بوصفه ظاهرة من ظواهر اللغة وظفه النص القرآني لبيان مراد الله سبحانه من آيات الذكر الحكيم، فترديد الكلام حول معنى واحد في آيات مختلفة تتشابه لفظا ومعنى وفصاحة وبلاغة سر من أسرار القرآن، وضرب من ضروب القدرة الكلامية اختص بها القرآن حيث تنبل الأغراض، وتبلغ المقاصد التي سيق لها الكلام قمم الرفعة والسمو، الأمر الذي لمثله يستطاب التكرار وسجل بفضله على العرب عجزهم بالفطرة عن معارضته " لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهما، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منهما غير الأخرى وجها أو عبارة وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ومستمرون على العجز لا يطيقون، ولا ينطقون فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز، وأشد عليهم في التحدي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي الذي قد تمكن معه الاستطاعة أو تتهيأ المعارض حينا بعد حين إلى العجز الفطري الذي لا يتأول فيه المتأول ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجري الأمر فيه على المسامحة"[2]، وعجز العرب عن معارضة النص القرآني والإتيان بمثله ظاهرة واضحة تمام الوضوح حفظها لنا التاريخ " وكيف لا يقفون أمامه عاجزين وهو منبع الطاقة ومنبع التلقي الصافي الذي سارت أمتنا على هديه ولا زالت تحتمي بظله، فالقرآن الكريم معجز في

(1) لقاء متلفز للدكتور محمد محمد أبو موسى

(2) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 194

بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، فتعبيره يستقيم على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تختلف خصائصه كما هو الحال في أعمال البشر، ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثر، القوة والضعف، التحليق والهبوط، الإشراق والإنطفاء، إلى غير هاته الظواهر التي تبرز النقص البشري أيما بروز، ولعل أخصها (التغيير والاختلاف) الدائم من حال إلى حال وهذا عكس الظاهرة الملحوظة في كتاب الله جل شأنه"[(1)]، وظاهرة التكرار في القص القرآني لها خصوصية تختلف عن المألوف في الدرس الأدبي والنقدي فلقد" اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنه من الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية له وراءها فدل ذلك على كونه معجزا منها: أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول وفى القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلا"[(2)]، والتكرار له فوائده لأنه من العوامل التي تساعد على الإقناع، ولكن إعادة ذكر الشيء نفسه دون تنويع قد يضايق السامع أو المتلقي، ولذلك فإن التكرار مع التنويع، أي تكرار المعنى نفسه بعبارات مختلفة، وبصيغ شتى وسياقات متنوعة يكون أكثر فعالية في الإيحاء المستمر، لأنه يجنب السامع أو القارئ الملل والسأم، ويذكره باستمرار الهدف، ويعمق التوعية بالمعنى المقصود"[(3)]، فالتكرار في القص القرآني له خصوصية وأثر دلالي "ولا شك أن تكرار القول لا يقل تأثيرا في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل، بل إن التكرار في القول مما يدفع إلى الفعل"[(4)]، لما يعلمه الله من اختلاف البشر وفوارقهم الفردية وهو أعلم بهم قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14]، "فلما يعلمه الله من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم، إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة، ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة"[(5)]، وعلى إثر هذا الكلام فإن التكرار القرآني"يخدم غرضين في آن واحد غرضا فنيا يتمثل في تجدد الأسلوب إيرادا وتصويرا والتفنن في العرض إيجازا وإطنابا، والتنوع في الأداء لفظا ومعنى وغرضا نفسيا بما له من تأثير في النفوس لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس"[(6)]، ولأن النص القرآني نزل لشرائح متعددة من البشر وأنواع مختلفة في كل شيء، العرق والجنس واللون والأمزجة والتركيبة الذهنية وطرق استقبال الأوامر والنواهي الربانية، فالناس متفاوتون في استقبال الرسائل التي توجه إليهم، والأمراض الخلقية مختلفة تصيب النفوس البشرية التي تختلف بدورها من شخص

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط10، 1402هـ- 1982م، ص 721- 722

(2) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2 / 115

(3) جيهان أحمد: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، ط 1975م، ص 448

(4) الهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ط1971م، الجزائر، ص 116

(5) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص 128

(6) المصدر السابق: ص 115، 116

إلى شخص آخر، وتختلف من جيل إلى جيل، ومن بقعة إلى بقعة أخرى، فكان " لابد في علاجه للأمراض المستوطنة من أن يسلك طرقا متعددة، وأساليب متباينة، تبعا لتباين الناس في استعدادهم وأن تمر بمراحل، ويتطور في علاجه تبعا لعمق الداء، واستفحال المرض، حتى يصل إلى العلاج الناجع والدواء الشافي"[1]، ويجب التنبيه على أمر مهم يتعلق بالنص القرآني نفسه وهو أن النص القرآني لم ينزل على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة، وإنما نزل منجما مفرقا حسب المواقف والأحداث على مدار ثلاث وعشرين سنة، بغية التعليم وتبئير للحدث، ومن ثم تكررت لقطات ومشاهد النص القرآني حسب ما يقتضيه سياق الموقف، وأسباب النزول تيسيرا للعباد وتدريجا لهم، فأمة العرب في مجملها في ذلك الوقت كانت أمية، فهذه الحالة – التنجيم – تناسبها بالإضافة إلى ما سبق ذكره.

وكما كان النص القرآني هو معجزة الإسلام الأولى التي أيّد بها الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، كان معجزة لغوية بما يحوي من إعجاز بياني ونظم تركيبي فريد، لا تجد له مثيلا في كلام فصحاء العرب، وهم فطنوا إلى هذا الإعجاز، وهذا الانتظام المعجز الساحر الخلاب حواه النص القرآني بأكمله، ولا نجد له مثيلا في النصوص الإبداعية البشرية – كما ذكرت –، " والتكرار في النص القرآني له دلالات فنية ونفسية يدل على الاهتمام بموضوع ما يشغل البال سلبا كان أم إيجابا، خيرا أم شرا، جميلا أم قبيحا، ويستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاته، والتكرار يصور مدى هيمنة المكرر وقيمته وقدرته، وإن كل عبارة فيها لفظ مكرر – ضمن مقطع كتابي أو في آية قرآنية – يكون حدا فاصلا لموقف نفسي معين، وتحمل – أي هذه العبارة المكررة – دفعة شعورية معينة، متناغمة في وقع موسيقي مقسم ومتساو مع لاحقتها وسابقتها"[2]، والتكرار وسيلة مهمة من أقوى وسائل الإقناع والتأثير، ولكن لا بد فيه من التنويع لأن إعادة ذكر الشيء نفسه دون تنويع قد يضايق السامع أو المتلقي، ولذلك فإن التكرار مع التنويع أي تكرار المعنى نفسه بعبارات مختلفة وبصيغ شتى وسياقات متنوعة، يكون أكثر فاعلية في الإيحاء المستمر لأنه يجنب السامع أو القارئ الملل والسأم ويذكره باستمرار الهدف، ويعمق التوعية بالمعنى المقصود منه، والتكرار في النص القرآني تكرار يستدعيه سياق الآيات وليس مقحما عليه وله علاقة بالمعنى المراد يقويه ويؤكده في نفس المتلقي، ويلح عليه إلحاحا يجعل منه ناقوس يدق على الآذان حتى تستفيق من الغفلة والنسيان، والتكرار يحول الشيء المكرر إلى عقيدة راسخة في نفوس متلقي التكرار وهذا ما يؤكده علماء النفس والاجتماع، فهو في نهاية الأمر ظاهرة وأسلوب متميز من أساليب اللغة العربية وظف في نصوصها وعلى قمتها القرآن الكريم وفي القلب منه القصص القرآني.

(1) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، ص 36- 39

(2) عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1980م، ص 67-68

بملكنا أن نقول: إن التكرار ظاهرة لافتة في أسلوب القرآن الكريم –كما مر ذكره – وأكثر ظهورا ووضوحا في مشاهد القص القرآني ولقطاته، فأنت ترى القصة الواحدة تتكرر مشاهدها ولقطاتها في سور عديدة، مثل قصة آدم عليه السلام، فلقد تكررت القصة في سور كثيرة وآيات متعددة، وهذا التكرار لافتا ومقصودا وليس عبثا، وقصة موسى عليه السلام هي أكثر القصص ورودا في النص القرآني، وغيرها من القصص الأخرى مثل قصة نوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء الذين وردت قصصهم في القرآن الكريم، وهذا –كما قلت – ظاهرة لافتة لنظر الباحث الجاد لدراستها بغية الوصول إلى ما وراء ذلك التكرار من نكات بلاغية، وآثار فنية وملامح دلالية فالأسلوب القرآني في سياقاته المختلفة " يقتصر في ذكره على الوقائع التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السور، والقرآن إذا كرر حلقة من قصّه فلا ريب في أنه قد أورد فيها شيئا جديدا لم يذكره من قبل، فهو لا يسرد قصص الأنبياء باعتبارها (بوصفها) تاريخا يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع، وإنما هو يذكرها لما في أحداثها من عبر وعظات، لذلك يقتصر على وقائع القصة التي تناسب العبرة التي يريد بثها"[(1)] والقرآن الكريم –كما ذكرت سابقا نزل منجما – وهي سنة إلهية ماضية في خلقه وهي سنة التدرج تيسيرا للعباد على الحفظ والتعلم، وأخذ العظة والعبرة " تنبيها لهم من سنة الغفلة وشحذا لقلوبهم بتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ استعبارا لهم واختبارا لبصائرهم"[(2)]، وتكرار المشاهد القصصية للقصة الواحدة وتنوعها يتطلبه السياق بشدة لما له من دور كبير في إبراز المعنى وذلك لأن تنوع المشاهد واللقطات في الصورة الفنية يثري المعنى الواحد ويؤكده في الأذهان، وتجعله يعلق بالقلوب، " فالسياق القرآني هو الذي اقتضى هذا التنويع في الدوال مع بقاء المدلول الواحد وهو تنويع يزيد المعنى وضوحا وتأثيرا، ويجعل الصورة القرآنية بناء متحدا متناسقا وليس أجزاء منفصلة"[(3)]، والتكرار القصصي في القرآن الكريم له من البهاء والجلال ما يجعلك تستشعر أسمى معاني الإعجاز القرآني "تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة وفى أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه في جلاله وروعته وسطوته"[(4)]، ولأن القصة في القرآن سيقت لأغراض كثيرة ومتنوعة "فقد يذكر جانب من القصة في موطن بحسب السياق الذي ترد فيه والغرض الذي يراد منها، ويذكر جانب آخر في موطن آخر بحسب ما يراد من الغرض وموطن العبرة،... فيختار القرآن الألفاظ والعبارات بحسب السياق الذي ترد فيه القصة"[(5)]، نتيجة لما ورد ذكره تتكرر المشاهد

(1) نور الدين عنتر: القرآن الكريم والدراسات الأدبية، مديرية الكتب والمطبوعات، جامعة دمشق، ط 1989م، ص 226

(2) محمد زغلول سلام: أثر القرآن الكريم في تطور النقد العربي، دار المعارف، مصر، ط2، 1961م، ص142، ص143

(3) عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، دار فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط1، 2001م، ص 74

(4) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1975م، ص65

(5) فاضل السمرائي: التفسير البياني، ص 15- 17

القصصية للقصة الواحدة في مواضع مختلفة من أي القرآن وسوره حسب السياق والغرض المراد، وزاوية الرؤية، ذلك كله في تناسق عجيب وأثر دلالي يتسق والبيان القرآني المعجز.

المبحث الثالث: التكرار في قصة آدم – عليه السلام – وأثره الدلالي

قصة آدم– عليه السلام– كررت في مواضع كثيرة من النص القرآني، لأن قصة آدم هي تكثيف لقصة الإنسانية كلها، وهي بمثابة المعلم الأول للبشرية واللبنات الأولى في بناء الحضارة الإنسانية، بوصف سيدنا آدم – عليه السلام – أبو الإنسانية وأول الأنبياء على ظهر الأرض ومنه تتفرع الأجناس الإنسانية قاطبة، " إن قصة خلق آدم تمثل خريطة الوجود الإنساني وبوصلته التي بها يعرف بدايته ونهايته وعلاقته بالوجود وموقعه من هذا العالم، وإن طمس هذه الخارطة وتغييبها سيجعل الإنسان تائها لا يدري موقعه من هذه الحياة ولا أين المصير، ولو أنه أعطى خارطة مزيفة ومعلومات مزورة عن أصل وجوده وبداية خلقه وطبيعة مهمته، فلن يزداد إلا تيها لأن هذا التزوير سيفقد الإنسان كينونته ومعنى وجوده، وسيلجأ إلى عقله ليبحث عن إجابة أو سيتلقف ما يلقى إليه من شوارد الأفكار التي لا تستند لدليل وبرهان من نتاج العقول التائهة والأفهام الحائرة، وقد قص علينا القرآن قصة آدم – عليه السلام – وفصّل أحداثها وأبرز وقائعها، لأنها تشكل أساس البناء الذهني والفكري الذي يضبط حركة التفكير ويحمي العقل ويعصمه من الضلال والتيه، ويزوده بمعايير وقواعد النقد والتفكير الصحيح"[1] فكان لزاما أن يكون لهذه القصة خصوصية تميزها عن غيرها من القصص والأحداث التي ورد ذكرها في النص القرآني، فهي تعرض الصورة الأولى للحياة على وجه البسيطة، وتخلّد علاقة الإنسان الأزلية بعدوه الأول والأخطر في الحياة الدنيا وهو الشيطان، وتخلّد أول سبل غواية الشيطان لأبينا آدم – عليه السلام – والتآمر عليه والكيد له، ومعرفة نقاط الضعف الإنساني ونفاذ الشيطان من خلال نقاط الضعف هذه، وظهور أول أعراض الخلل في النفس البشرية من الحقد والحسد الذي تطور إلى القتل كما في موقف هابيل وقابيل، وغيرها من المواقف التي عرضتها القصة أشبه باللقطات السينمائية الحديثة التي تستخدم المؤثرات السمعية والبصرية واللون والحركة، وإيماءات الوجه وكل وسائل التأثير في المتلقي وأدواته، "إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه، وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد"[2] وهذه المشاهد واللقطات لها أثر دلالي واضح ارتبط بالمعنى والسياق والسورة التي ورد فيها، فقد وردت القصة في عدة سور من القرآن الكريم، وتكرار قصة آدم كان الغرض منه وضع الأركان الأولى

(1) البناء الذهني في قصة آدم عليه السلام: محمد أمجد عبد الرازق، 2022 -1 -10 rawaamagazine، مقال على الانترنت

(2) التعبير القرآني: فاضل السمرائي، ص 283

لقيام الحضارة الإنسانية التي ستستمر حتى قيام الساعة، فذكرت مرة توضح مكانة الإنسان بين المخلوقات، وأمر الملائكة بالسجود له، وتبين طاعة الملائكة المطلقة، ورفض إبليس السجود لآدم تكبرا، ثم ذكرت مرة أخرى لتبين العداوة الأزلية بين الشيطان والإنسان، ووسوسته الدائمة للإنسان بالشر وحقده عليه لأنه فيما يرى سبب خروجه من الجنة ولعن الله سبحانه له، فتكررت المشاهد القصصية لقصة آدم عليه السلام وفي كل مرة ترسخ مفهوما من المفاهيم، أو توضح أساسا من الأسس التي سوف تبنى عليها الحياة الإنسانية، من هذه الأسس التي تكرر ورودها في قصة آدم عليه السلام:

خلق الإنسان

وردت مسألة خلق الإنسان بصورة واضحة لا لبس فيها ولا غموض لأهميتها الشديدة في بيان أصل الإنسان ومن ثم أصل الحياة الإنسانية، وأن مسألة خلق الإنسان من المسائل الثابتة المستقرة التي لا تخضع لتأويلات البشر، فقد حسمت هذه القضية من قبل الخالق سبحانه وتعالى، وهذا يدل دلالة قاطعة على بطلان نظريات مثل نظرية " دارون" العالم الإنجليزي التي سميت بأصل الأنواع أو النشوء والارتقاء، أو أية نظرية أخرى تخالف نظرية الخلق التي ذكرها الحق سبحانه، فلقد وردت قصة الخلق في آيات كثيرة ولقطات متنوعة من مشاهد القصة تؤكد نسبة الخلق لله سبحانه على النحو التالي:

قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ} [الحج: 5]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [غافر: 67]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: 12 – 16]، وقال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} [الصافات: 11]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر: 26]، وقال تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: 29].

الآيات السابقة توضح المشاهد واللقطات التي تبين بجلاء مراحل خلق الإنسان ونسبته للحق سبحانه، ليست متناقضة، فهي سلسلة متصلة تبين المراحل التي مرت بخلق الإنسان حتى أصبح إنسانا فيه روح يتحرك وينبض بالحياة كما أرادها الخالق سبحانه، فالذي خلق قال: "أنا خلقتك من تراب من طين من حمأ مسنون من صلصال كالفخار، فالماء وضع على تراب فأصبح طينا والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا، والصلصال جف فأصبح حمأ مسنونا، ثم نحته في صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا، ثم يأتي الموت وهو نقض

للحياة ونقض كل شيء يأتي عكس بنائه"[1]، فتكرار المشاهد في القصة – كما ذكرت – يبين مراحل الخلق بوضوح، هذا أمر غيبي (قضية الخلق) لكن قضية الموت قضية مشاهدة وواقع في حياة الناس لا ينكره حتى الملاحدة، ووفقا لمنطق الأشياء أن الموت هو عكس الحياة ومن ثم مراحل الموت تكون عكس مراحل الحياة "فأول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون، ثم يتعفن فيصبح كالصلصال ثم يتبخر الماء فيه فيعود ترابا، وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة متفقا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه وتعالى"[2]، الآيات السابقة تبين مراحل خلق الإنسان تدرجت في التصور حتى وصفت مراحل الخلق من بداية النطفة ثم تكوينه داخل رحم الأم وصفا دقيقا للغاية لا يتأتى إلا من الخالق، وأكد دقة هذه المراحل علم الأجنة الحديث بما لا يدع مجالا للشك بعد اختراع الأدوات الحديثة التي أكدت تلك الحقيقة بالدقة ذاتها، فأنى للقرآن معرفة ذلك في ذلك الزمن السحيق إلا إذا كان الواصف هو الخالق سبحانه وتعالى، والتسليم بنسبة الخلق لله سبحانه يؤكد قدرته على البعث، فالقادر على الخلق أقدر على البعث، وفى ذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: 27]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: 5]، ثم يؤكد تلك الحقيقة وهذا المعنى بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [غافر: 67]، هذا إلى جانب الآية الآيات السابق ذكرها من سورة المؤمنون من الآية (12- 16)، وكلها تؤكد على حقيقة الخلق ثم القدرة على البعث، ثم يؤكد تلك القدرة وصدق الوحى بقوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: 78، 79]، وقال تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: 28]، وهذا دليل عقلي يتناسب مع منطق الأشياء الذي يقدر على خلق نفس واحدة يستطيع خلق غيرها، بل غيرها أهون بسابق التجربة.

هذه المشاهد واللقطات تعددت وتنوعت في قصة خلق أبينا آدم لتبين طبيعة الخلق وتؤكد قدرة الخالق وصدق القرآن، وتنقض كل النظريات التي خاضت في قضية الخلق على غير علم وتثبت فسادها، وعلى إثر هذا يطمئن الإنسان إلى أصل خلقه ويرده إلى الخالق سبحانه، والإقرار بحقيقة الخلق ثم البعث بعد الموت له تبعات ومن ثم

(1) الشيخ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، ص 225

(2) المصدر السابق

مقتضيات على المخلوق تجاه خالقه، أهمها الإيمان بالبعث ومن ثم الحساب، لذا يجب التسليم المطلق لله، والقيام بمقتضيات الاستخلاف في الأرض وغيرها من الأوامر والنواهي التي فرضها الخالق سبحانه على المخلوقين، كل هذه المعاني أفادها تكرار الآيات السابقة التي تكلمت عن الخلق والبعث في مواضع كثيرة من سور القرآن الكريم وآيه لتأكيد هاتين الحقيقتين لما لهما من أهمية عظيمة في حياة الإنسان.

معصية إبليس ومعصية آدم

تكرر مشهد رفض إبليس السجود لآدم – عليه السلام – في أكثر من موضع في القصة في سور مختلفة وذلك لتوضيح أثر دلالي في كل مرة يذكر فيها، ففي كل مرة تبين اللقطة معنى مختلفا عن غيره من المعاني التي توضحها اللقطات الأخرى، ففي اللقطة التي يوضح فيها الحق سبحانه طبيعة خلق إبليس يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: 50]، وقال تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 12]، فإبليس كما هو معلوم لم يكن من الملائكة، ولكنه كان من الجن، ولكنه لما أطاع الله سبحانه، وهو مخير وليس مسيرا، رفع إلى درجة أعلى من الملائكة، ومادة خلق الجن هي النار، والله سبحانه خلق الإنسان من طين، وكررت الآيات لتبين بوضوح سبب معصية إبليس، فقال تعالى في موقف: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ} [ص: 75]، ثم قال في موضع آخر: {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ} [الأعراف: 12]، والفرق بين الآيتين فرق كبير في الدلالة، " فهناك فرق بين أنك تريد أن تسجد ويأتي من يقول لك: لا تسجد، وبين أن يقنعك شخص بألا تسجد، فقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ} كنت تريد السجود ومنعك أحد منه، وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ} أمرك ألا تسجد وأقنعك وأنت اقتنعت "[(1)]، فتكرار الموقف للتأكيد على أن معصية إبليس عن قصد منه، ودليله قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} [طه: 116]، وقوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ} [ص: 74]، ثم قال تعالى: {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص: 75]، فإبليس ذكر علة عدم السجود وحيثياته فردّ الحكم على الله سبحانه في قوله تعالى: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: 61]، وأكد إبليس هذه الفكرة في قوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: 76] وبناء على هذا الكلام فإن إبليس رفض وذكر علة الرفض وهذا مما ضخّم من حجم جرمه وعصيانه للحق سبحانه، فذكر علة ليس له يد فيها بل هي قدر الله وحكمه على الخلائق (مادة الخلق) "فالله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته، ولا يحسب أنه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض، ولقد كانت معصية إبليس في أنه رفض أن يسجد لآدم... إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصي، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين، ما

(1) تفسير الشعراوي: ج15/ 9425

يجعل هذا الأعلى في العنصر وهو الشيطان يخضع للأدنى وهو الإنسان، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم ولكنه بمشيئة الله"[1].، فالحق سبحانه شاءت حكمته " إظهار مزية نوع الإنسان وأن الله يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم"[2]، فمادة الاتصاف بالكبر وبنية هذا المعنى " لم تجئ فيها غلا بصيغة الاستفعال أو التفعّل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون متطلبا الكبر أو متكلفا له وما هو بكبير حقا"[3]، وهذا يدل على انتفاء استحقاقه للكبر وأنه ليس أهلا له.

ومما يبين هذا يوضحه الفرق بين معصيتي آدم – عليه السلام – وإبليس، فإبليس جاء بحيثية رفض الأمر، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة... ولذلك كان جزاء إبليس – وهو المتأبي على أوامر الله وحكمه – أن يطرد من رحمته، وجزاء المعترف بأنه أذنب، وأنه ظلم نفسه أن تقبل توبته"[4]، فمعصية آدم أتت عن غفلة ونسيان لأوامر الله، ثم أقر بالمعصية واعترف بذنبه وندم عليه وأراد التوبة فتاب الله عليه، فهو لم يفلسف العصيان ويذكر سببا له كما فعل إبليس، لذا فالفعلان مختلفان في التوجه وتوضيح الحيثيات، وهذا يؤكد بشرية آدم عليه السلام، يعتريه ما يعتري النفس البشرية من نسيان وغفلة وطمع في الخلد ومن عوامل نقص وضعف بشري في مواقف متباينة معهود ومكرر، ومما يؤكد هذا الكلام قوله تعالى: "ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين" [سورة يس: 60]، وهذا لوم وعتاب وتذكير لهما ألا يتبعوا خطوات الشيطان فهو عدو صريح واضح ، فاعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف بالذنب هو أولى خطوات التوبة وتصويب الخطأ وتعديل المسار لذا قال تعالى على لسانهما: "قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" [سورة الأعراف : 23]، وهذا نهج غير الذي انتهجه إبليس لذا تاب الله عليهما قال تعالى : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم" [سورة البقرة : 37]، فتكرار معصية إبليس – والله أعلم بمراده – أتى لرفض العصيان بمفهومه العام، وبرفض التكبر بحجة التميز عن الخلق في أصل خلقه، لأن هذا لا دخل للمخلوق فيه، وبرفض رد الأمر إلى الله سبحانه، ويجب التسليم المطلق لله سبحانه فيما أمر ونهى، ولبيان حقد إبليس على بني آدم في جعلهم سببا مباشرا لعصيانه وطرده من رحمة الله، وتكرار معصية إبليس أتى ليؤكد حقيقة التسليم المطلق لأوامر الله ونواهيه لكل المخلوقات، وليؤكد الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام.

(1) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، ج1 / 494

(2) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، ج1/ 420

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه

عداوة إبليس للإنسان

تكررت المشاهد واللقطات في القصة لتبين بما لا يدع مجالا للشك عداوة إبليس الأزلية لبني آدم، والتأكيد عليها، لما لها من أهمية بالغة في حياة الإنسان، ولبلورة الصراع الأبدي بين الشيطان والإنسان، ولذلك للحيطة والحذر من هذا العدو الواضح الصريح الذي أوردته القصة في مشاهد كثيرة، وبينت أن غواية الشيطان هي سبب خروج آدم وزوجه من الجنة.

المشهد الأول يقول ربنا تبارك وتعالى: {إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طه: 117]، وقوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 168]، وقوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: 6] وقد وردت تلك العداوة والإصرار عليها على لسان إبليس نفسه في قوله تعالى: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: 16]، وقوله تعالى: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 82، 83]، وقوله تعالى: {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 62]، وقال تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طه: 117]، وقال تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [طه: 123]، ومبدأ إظهار العداوة الأزلية بين الشيطان وبني آدم ركز عليه النص القرآني تركيزا شديدا، لما يستتبعه من مقتضيات تأكيد هذه العداوة، وضرورة انتباه الإنسان لها والحيطة والحذر منها، "وهذا أصل عظيم في تربية العامة ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثا على أخذ الثأر"[1]، لذا يلوم الحق سبحانه بني آدم اتباعهم الشيطان في قوله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي} [الكهف: 50]، وهذا تذكير لتلك العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سببا في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبدا ثأرا لأبيهم معادين للشيطان ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه فيقول الحق سبحانه: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [الأعراف: 27]، والآية الكريمة تؤكد على تذكيرهم بهذه المصيبة التي حلت على أبيهم ثم عليهم من بعده[2]، وقوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} [البقرة: 36]، والآية الكريمة "تفيد إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى وموعظة تنبه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهى والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده"[3].

(1) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، ج1/ 434

(2) انظر المصدر السابق نفسه.

(3) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، ج1/ 434

الخاتمة

هذه تطوافة سريعة بينت فيها ماهية ظاهرة التكرار في القرآن الكريم وخاصة القصة القرآنية، وبيان الآثار الدلالية والفنية المترتبة على هذه الظاهرة، وكيف أنها وردت ورودا لافتا للنظر في مشاهد القص القرآني في السور المختلفة.

نتائج البحث

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج منها:

– ظاهرة التكرار ظاهرة لغوية مشتركة بين علمي النحو والبلاغة، وهي ظاهرة موجودة في اللغة العربية وفي أساليبها المختلفة منذ أقدم عصور استخدامها في الأدب الجاهلي شعره ونثره.

– ظاهرة التكرار وظفت في القرآن الكريم توظيفا بارعا، أغنت الدلالة، وأثرت البنية الفنية للآيات القرآنية، والتحمت التحاما قويا بمعاني السور القرآنية التي وردت بها.

– ظاهرة التكرار كانت أكثر بروزا في مشاهد القص القرآني، ولقطاته، واختلفت المعاني باختلاف زاوية الرؤية، والسياق الذي ورد فيه المشهد القصصي.

– التكرار بوصفه ظاهرة لغوية وظفها القرآن الكريم في قصصه وخاصة قصة آدم عليه السلام.

– ظاهرة تكرار مشاهد القص القرآني أسهمت إسهاما مباشرا في بلورة المعنى المراد والمقصود من آيات القرآن الكريم، وأسهمت في بيان إعجاز القرآن الكريم وتفرده.

– كررت المشاهد القصصية لقصة آدم عليه السلام في مواضع مختلفة من أي القرآن وسوره حسب السياق والغرض المراد وزاوية الرؤية، ذلك كله في تناسق عجيب وأثر دلالي يتسق والبيان القرآني المعجز.

– ظاهرة التكرار وظفت في القرآن الكريم بخصوصية تختلف عن توظيفها فيما سواه من الأدب العربي شعره ونثره.

– كررت المشاهد القصصية لقصة آدم عليه السلام للتركيز على مجموعة من الحقائق المهمة في حياة الإنسان منها:

– كيفية الخلق ونسبتها لله تعالى (نظرية الخلق) وما يترتب عليها من واجبات تجاه الخالق سبحانه.

– تأكيد حقيقة البعث والقدرة عليه، والتدليل على ذلك وما يترتب عليها من الحساب والجنة والنار.

– معصية الشيطان والفرق بينها وبين معصية آدم، وتأكيد العداوة الأزلية بين الشيطان وبني آدم، ومن ثم الحيطة والحذر من هذا العدو الواضح والصريح.

المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم

– ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1999م.

– أحمد الشرباصي: يسألونك في الدين والحياة، دار الجيل، بيروت، ط4، 1980م.

- التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ط1، الجزائر، 1971م.
- الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط 1988م.
- جيهان أحمد: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، ط1975م.
- حفيظة عبداوي: أسلوب التكرار في القصة القرآنية. قصة موسى عليه السلام نموذجا، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة والأدب، الجزائر، 1421هـ – 2001م.
- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته وأساليبه حتى القرن الثاني الهجري، علم الكتاب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008م.
- سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1402هـ - 1982م.
- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1988م.
- الزمخشري: أساس البلاغة، ط1، 2003م، بيروت، لبنان.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 1984م.
- عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1 1980م.
- عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، دار فصلت، حلب، ط1، 2001م
- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1975م.
- فاضل السمرائي: على طريق التفسير البياني، كلية الآداب والعلوم، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشارقة، 1423هـ - 2002م.
- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير (مفاتح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- القاضي الجرجاني: التعريفات، تح نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصوير، القاهرة، ط1، 2007م
- كمال أبو ديب: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1981م.
- محمد أمجد عبد الرازق: البناء الذهني في قصة آدم عليه السلام، مقال على شبكة الانترنت، rawaamagazine.
- محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي، دار المعارف، مصر، ط2، 1961م.
- محمد صابر عبيد: القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.
- محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات.
- محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3.
- محمود سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م.
- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.